المصلحة من تهدم الجسور ؟

أهل السنة لا يعرفون شيئا عن مذاهب وأفكار الشيعة، وبعضهم عرف قليلا عنها من أقوال أو عبارات أو أحكام إدانة أوهجوم من هنا وهناك، وبعضهم أخذ معلوماته من كتب قديمة كان لأصحابها عداء شديد للشيعة، وكان هذا العداء فى الأصل لأسباب سياسية حول الخلافة والحكم وليس خلافا حول أصول الدين.. والنتيجة أن فكرة أهل السُنّة عن الشيعة مختلطة بكثيرمن الأكاذيب والشائعات.. وهذا هو السبب فى أن معظم أهل السُنّة ينظرون إلى الشيعة جميعا على أنهم فرقة واحدة، مع أنهم فرق كثيرة.. منها فرق معتدلة لا تختلف كثيرا عن أهل السُنّة، وفرق أخرى لها أفكار غريبة وبعيدة هى التى يسمونها (غلاة الشيعة) ولابد أن نفرق بين هؤلاء وهؤلاء، لأن الخلط بينهما واعتبارهما شيئا واحدا هو الذى أدى إلى استمرار الجفوة. بدون مبرر.

وأول من كتب عن مذاهب وفرق الشيعة بحياد وموضوعية هو الدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية رحمة الله عليه. وقد تتلمذت على يديه، وكنت مفتونا بإخلاصه للعلم، وتفرغه الكامل للبحث، واطلاعه الواسع على كتابات فرق غلاة الشيعة، وهى كتابات لا يطلع عليها غيرهم، ويعتبرونها من الأسرار. ولذلك كان كتابه «نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام» الجزء الثانى عن نشأة التشيع وتطوره، هو أول وأهم كتاب يشرح بالتفصيل كل شىء تقريبا عن المعتدلين و المتطرفين من الشيعة. وقد طبع حتى الآن ثمانى طبعات فى دار المعارف.

وفى سنة ١٩٦٨ أصدر الدكتور النشار الطبعة الرابعة وفيها أعلن اكتشافه الخطير بعد دراسة التاريخ السرى أو الباطنى للشيعة الغلاة، وهو أن (الكبالا) اليهودية كان

لها التأثير الكبير فى عقائد الشـيعة الباطنية الغـلاة. وتوصل أيضا إلى حقائق مؤيدة بالدليل والوثائق والمراجع وهى باختصار:

أولاً: أن الأفكار التى يعتنقها الشـيعة الاثنا عشرية فى مجموعها إسلامية بحتة لا تتعارض مع أفكار أهل السُنّة.

ثانيًا: أن هناك طوائف شيعية متأثرة بأفكار ومعتقدات دخيلة على الفكر الإسلامى، وأخطر هذه العناصر الأجنبية هى الكبالا أو القبالا اليهودية التى نشأت وعاشت فى الشام والعراق وكان لها موطن خفى فى اليمن حيث كانت اليهودية مترسخة.

ثالثًا: أن الاختلافات بين مذاهب وفرق الشـيعة اختلافـات كبيرة وجوهرية.. وإن كان الإطار العام للتشـيع واحدا، إلا أن التشـيع يختلف بعد ذلك بين فرقة وأخرى. وعلى سبيل المثال هناك اختلاف بين عقائد الشيعة الإمامية -وهى الفرقة التى أنشأها الإمام جعفر الصادق وتلاميذه-، وعقائد الشـيعة الاثنى عشـرية وهـى الفرقة التى أنشـأها المجتهدون من علماء الشـيعة بعد غيبة الإمام الثانى عشـر. وهناك اختلاف صارخ بين فلسـفة الفرقة الإسماعيلية الأولى وبين فلسفة الغلاة منهم الذين يسمون (الخطابية).

رابعًا: أن أهل السُنّة والجماعة استندوا على النقل والعقل، أما الشيعة فإنهم اعتمدوا فى نشـأتهم الأولى على النقل فقط، والنقل عن طريق واحد، وعن مجموعة خاصة من أئمة أهل البيت وبعض أصحاب الرسول ﷺ وأتباع الإمام على بن أبى طالب.

خامسًا: أن علماء الشـيعة المعتدلين فى عصرهم الأول وقفوا بقوة للدفاع عن الإسـلام فى مواجهة أعدائه وشـاركوا علماء أهل السُـنّة فى إقامة البناء العقائدى الإسـلامى متكاملا. ومن الثابت تاريخيا أن مدرسـة الإمام جعفر الصادق وعالمها الكبير هشام بن الحكم، قامت بالدور الأكبر فى هذا البناء العقائدى الإسلامى.

سادسًا: أن الشيعة أقاموا مذهبهم على شخص واحد هو الإمام على بن أبى طالب وزوجته السـيدة فاطمة الزهراء بنت رسـول الله ﷺ، ونسلهما وأحاطوهم بقداسة

كبرى، وشاركهم أهل السُنّة فى محبة علىّ وآل البيت جميعا، ولكنهم أعطوا قداسة كبرى للجماعة ورأوا أن الجماعة لا تجتمع على ضلالة، بينما رأى أهل الشيعة أن الجماعة قد تخطئ وقد تصيب، ولكن الإنسان الفرد ذا السلطة لن يخطئ أبدا، وأضافوا إلى هذا الإنسان العصمة واعتبروه معصوما من الخطأ. ومحبة الإمام على وأهل البيت ليست موضع خلاف، وقصة إسلامه وجهاده وأبوته لنسل الرسول- ﷺ- (الحسن والحسين) كل ذلك محل تقدير أهل السُنّة، لكن الخلاف يظهر بعد ذلك.. فالشيعة آمنت به وحده، بينما أهل السُنّة احترموا أبا بكر وعمر، وازداد الخلاف إلى حد القطيعة والعداء والحرب عندما وقف معاوية ضد علىّ، وحاربه، وهنا بدأ الشيعة فى معاداة معاوية.. بل ومعاداة أبى بكر وعمر أيضا حتى بعد موتهما. واعتبروا خلافتهم باطلة لأنهم اغتصبوا الخلافة من صاحبها الشرعى وهو الإمام علىّ. وبدأ أبناء الإمام علىّ والسيدة فاطمة الزهراء يكتبون بدمائهم أكبر الملاحم. ومات الإمام الحسن مسموما. وبعد معاوية أصبح ابنه يزيد هو الخليفة، وقتل الحسين بن على بوحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلا. وقتل زيد بن على فى ملحمة أخرى.. وتتابعت الملاحم، والمذهب الشيعى يتشعب ويتضخم حتى تولى العباسيون الحكم فذاق نسل علىّ منهم الذل والموت أشد مما ذاقوا من الأمويين، وكلما اشتد الاضطهاد على شيعة علىّ ونسله ازداد المذهب الشيعى تشددا وانتشارا.. وفى العالم اليوم ملايين الشيعة: اثنا عشرية، وإمامية واسماعيلية، وزيدية، ثم غلاة الشيعة المنتشرون.

كبرى فرق الشيعة المعاصرة هى الاثنا عشرية، وهى فرقة إسلامية بحتة وعقائدها لاتكاد تختلف عن عقائد أهل السُنّة.

نظرية (الإمامة) هى الأساس فى فقه الشيعة. وهى عقيدة مؤداها أن علىّ بن أبى طالب هو الإمام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده، وإذا خرجت فإن ذلك يكون ظلما ممن اغتصب الإمامة.

سابعًا: أن مذهب الشيعة الزيدية يقترب من أهل السنة.

وفـى عقائد الشـيعة مكانة قدسـية للسـيدة فاطمة الزهراء بنت رسـول الله ﷺ، ويعتبرونها البرهان على عقيدتهم فى الحق الإلهى للإمام علىّ فى الخلافة وبأنها الشهادة الكـبرى من الرسـول ﷺ على أحقية علىّ فى خلافة الرسـول ﷺ فى الدين والدنيا. وأهل السُنّة يرفعون السيدة فاطمة إلى مكانة كبيرة إلا أنهم ينكرون أن النبى ﷺ نص صراحة على ولاية علىّ.

والإسلام دين واحد ليس فيه أهل سُنّة وشيعة ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. وهـذا ما جعل الدكتور مصطفى الشـكعة يؤلف كتابا مشـهورا يدعو فيه إلى (إسـلام بلامذاهب) قال عنه الشـيخ شـلتوت فى مقدمته: إنه محاولة لتوحيد الصف الإسلامى. وقال الدكتور الشـكعة: إن اختلاف المذاهب والعقائد فى ظل دين واحد ورسـول واحد يسـتغلها ذوو النيات السـيئة فى ضرب المسـلمين بعضهم ببعض، بينما الفارق ليس واسعا بين كثير من المذاهب، واللقاء بينها أيسر مما يظن كثيرون.. وفى اللقاء قوة. وأعتقد أن الدعوة إلى إلغاء المذاهب ليست واقعية، لأن عقول البشر تختلف فى المسألة الواحدة، ومناهـج البحث والتفكير متعددة، وتختلف النتائج باختلاف الدليل الذى يثق فيه الباحث ويعتمـد عليه، وقديمًا قيل إن اختلاف الفقهاء رحمة بالمسـلمين لأن فيه توسـعة ومجال للاختيار مادام الجميع ملتزمون بالكتاب والسنة ولايحيدون عنهما.

□□□

وللإمام علىّ مكانة عالية عند أهل السُـنّة والشـيعة، وإن كان بعض الشـيعة قد حمّلـوه ما يطيق ومالا يطيق من أحاديث تؤيد وجهة نظرهم. أهل السُـنّة يذكرون بطولة وإيمان علىّ فى طفولته وشـبابه، ويذكرون شـجاعته فـى الحروب، وعلمه، وورعه، ويذكرون كيف افتدى الرسـول بنفسه فى معظم مواقع القتال.. وهو العالم والفقيه، وقد عاش فى خلافة أبى بكر وعمر منكرا لذاته وقدم لهما العون والنصيحة مخلصا، وهو- عند أهل السُنّة- رابع الخلفاء الراشدين، ويرون أنه كان على حق فى

قتالــه أصحاب الجمل ومعاوية.. وهو الوحيــد الذى احتفظ بلقب (الإمام) فى كتب أهل السُنّة. ولم تفلح دعاية الأمويين ضده فى تغيير نظرة أهل السُنّة إليه.

أما الشــيعة فقد تمســك بعضهم بأحاديث نبوية تثبت أنه الخليفة للرســول ﷺ، وفسّــروا بعض الآيات القرآنية تفســيرا خاصا يــؤدى إلى أن الإمامة والخلافة له، وذكروا أن هذه وصية الرســول لقوله ﷺ: "أنت منى بمنزلة هارون من موســى إلا أنه لا نبى بعدى" وتمســك هؤلاء بولاية علــىّ وعصمته وبأنه وارث العلم النبوى الخــاص الــذى لم يُطلع عليه النبى ﷺ أحدا حين موته ســوى علىّ بن أبى طالب. وقــال بعض الشــيعة فى الكوفة عقــب مقتل الإمام على بأن الرســول ﷺ ترك له كُتبا خاصة وحددت الشــيعة المتأخرة هذه الكتب على أنها: مصحف فاطمة، وعلى هامشــه علــم ما كان وما يكون وما هو كائن، وقالــوا: إن النبى ﷺ أملاه لصاحب الأمر بعده.. ثم يظهر أثر الأساطير والفولكلور مثل اختصاص أئمة الشيعة بحقيقة تفســير الاسم الأعظم وأســراره، وفى هذا يطول الشــرح.. ويتداول الشيعة صور الإمام علىّ وبيده كرامات لا تقل عن المعجزات، حتى إنهم قالوا: إن الرســول ﷺ قال عن بدء الوجود: "كنت أنا وعلىّ بن أبى طالب قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألــف عام، فلما خلق الله آدم، انتقل النور فى الأصــلاب الطاهرة، والأرحام الذكية حتى صار فى عبد المطلب، فانقسم النور قسمين: قسم فى عبد الله، وقسم فى أبى طالب، فكان لى النبوة ولعلى الوصية".

ويذكر بعض الشيعة أن الرسول ﷺ سأل الأنبياء فى المعراج عن سبب رفعهم إلى هذه الدرجة، فشــهدوا جميعا بأنهم رفعوا بفضل نبوتــه وإمامة علىّ بن أبى طالب، والأئمــة من صلبك، فجاء النداء أن انظر إلى يمين العرش، فنظر النبى فإذا بأشــباح علــىّ وبنيه وحفدته وهم يصلون فى بحــر من النور، فقال الله تعالى: (هؤلاء حججى وأوصيائــى وأوليائــى، وينتقم آخرهم مــن أعدائى) وهكذا يروى هؤلاء عشــرات الأحاديــث فى رفع مكانة الإمام علىّ، حتى عندما دفن فى النجف قريبا من الكوفة

حيث مشـــهد الإمام الحسين، أعلن الشيعة الإمامية المعتدلة أن النبى إبراهيم ذكر أنه سيكون فى هذا المكان قبر عليه مشهد عظيم يفوز به سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم، وهذا المكان هو وادى السلام، وهو جزء من جنة الله الباقية، وإليه تحشر أرواح الشيعة.

ويجتمع الشـــيعة الإمامية من كل فج ليقفوا باكين أمام الإمام علىّ المعصوم، أول الأئمة، الصابر على الغضب، المقتول ظلما وعدوانا، يلتمسون منه الشفاعة فى اليوم الآخر، ومن قبره الشـــفاء فـــى هذه الحياة الدنيا، وينادون يـــا وارث الأنبياء، ويهتف الشيعى منهم: أشهد أنك كلمة التقى والأصل الثابت.

□□□

ومذاهب الشـــيعة كثـــيرة، وبينهم اختلافات، بعضهم معتدل قريب من أهل السُـــنّة، وبعضهم يشتط بعيدا ويردد أفكارا وأقوالا من ديانات أخرى. سنجد الشيعة الحنفية أتبـــاع الإمام محمد بن الحنفية، والشـــيعة الأبو هاشمية نســـبة إلى الإمام أبى هاشـــم محمد بن الحنفية. وسنجد غلاة الشيعة الإمامية. وغلاة الجعفرية. بينما سنجد الشيعة الإماميـــة المعتدلة وهـــؤلاء يؤمنون بالعصمة للأنبياء والأئمة، وســـنجد الشـــيعة الاثنى عشـــرية يؤمنون بأن الأئمة اثنا عشـــر إماما أولهم الإمام علىّ بن أبى طالب، وآخرهم الإمام الغائب. ويبدأ الخلاف بين الشـــيعة الاثنى عشـــرية وبين أهل السُنّة فى مفهوم الإمامـــة اختلافا كبيرا. هم قالوا: إن وجود الإمام واجـــب، والإمامة هى جوهر العقيدة الشـــيعية الاثنى عشـــرية، فالإيمان هو الاعتراف بوحدانية الله، ونبوة محمد ﷺ، وموالاة إمـــام العصر. والإمـــام عندهم هو مصدر التشـــريع بعد القرآن والسُـــنّة المؤكدة. والسُنّة المؤكدة عندهم هى الصادرة عن سلسلة الرواة من أهل البيت فقط، ولايقبل الشـــيعة حديثا له ســـند من أحد الرواة من غير أهل البيت، فالإمام هو وارث العلم النبوى، وهو يعلو على البشـــر باتصاله الدائـــم بالعلم الإلهى، والإمامة عندهم تنتقل بتسلســـل قدرة الله، وليس للبشـــر حق اختيار الإمام وإلا فســـد أمر الشريعة، لأن

حفظ الشريعة موكول بالإمام المعصوم. ويرى الشيعة الاثنا عشرية أن الإمام له سلطة كونية، وأنه هو الأمان لأهل الأرض كما أن النجوم هى الأمان لأهل السماء. والأئمة هم الذين تُمسَك بهم السماء فلا تقع على الأرض، ولا تميد الأرض بأهلها، وينزل بهم الغيث، وتنتشر الرحمة.. الخ

تفاصيل كثيرة.. نجد لها مثيلا فى بعض معتقدات الصوفية وأهل السنة.. بل نجد لها مثيلا فى كل الديانات نتيجة المبالغة فى الحب.

والمهم أن نفهم منزلة الإمام ومكانته عند الشيعة لنعرف كيف نتعامل مع الأئمة المعاصرين.

□□□

يقول محمد الحسين آل كاشف الغطاء وهو من كبار علماء الشيعة الذين شاركوا فى تأسيس جماعة التقريب بين المذاهب: إنه من المستحيل إزالة الخلاف بين المذاهب الإسلامية وجعلها مذهبا واحدا لأن الخلاف واختلاف الرأى من طبيعة البشر، وخالق البشر يقول فى سورة هود آيتى ١١٨، ١١٩: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

فلا يجدى التفكير فى إزالة أصل الخلاف بين المذاهب، وأقصى ما يمكن الوصول إليه هو إزالة الأسباب التى تجعل هذا الخلاف سببا للعداء. وأن يكون الإخاء والتقارب بديلا عن التباعد والتضارب، لأن المسلمين مهما بلغ الخلاف بينهم فإنهم مجمعون على الشهادتين، ومن شهد الشهادتين فقد اتخذ الإسلام دينا وحُرّم دمه وماله وعرضه.. والمسلم أخو المسلم.. ومن صلى إلى قبلتنا ولم يتدين بغير ديننا فإن له مالنا وعليه ما علينا.

ويقول: إن الفرق الجوهرى بين أهل السُنّة والشيعة هو قضية الإمامة، فالشيعة ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين، بعد التوحيد والنبوة، وأنها بالنص من الله

ورسوله، وليس للأمة رأى فيها ولا اختيار، كما أن الأمة ليس لها خيار فى النبوة، وإخواننا من أهل السُنّة متفقون على أن الإمامة ليست من أصول الدين، ويرون أن الإمامة يجب أن تكون بإجماع الأمة واختيارها وأنها قضية سياسية ليست من الدين، لا من أصوله، ولا من فروعه، ولكن مع هذا التباعد هل يرى الشيعة أن من لا يؤمن بالإمامة ليس مسلما؟ كلا ومعاذ الله. وهل تجد السُنّة تقول إن من يؤمن بالإمامة غير مسلم؟ كلا ومعاذ الله. هل يقول أهل السُنّة: إن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام؟ لا.. وكلا. إذن فإن القول بالإمامة أو إنكارها لا علاقة له بأحكام الإسلام الجامعة من حرمة دم المسلم ووجوب أخوّته.

وبصراحة يقول الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. لعل قائلاً يقول: إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم، وقد يتجاوز البعض إلى السب، مما يسيء إلى الفريق الآخر ويهيج مشاعرهم فتشتد الخصومة بينهم. ولو تبصرنا قليلا ورجعنا إلى حكم الشرع والعقل لم نجد ذلك موجبا للعداء:

أولاً: لأن هذا ليس رأى جميع الشيعة، وإنما هو رأى بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، فلا يصح معاداة الشيعة جميعا لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانيًا: أن هذا لا يكون موجبا للكفر والخروج على الإسلام، وأقصى ما هناك أن يكون معصية، وما أكثر العصاة من الطائفتين، ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعا.

ثالثًا: قد لا يدخل ذلك فى المعصية، ولا يوجب الحكم بالفسق إذا كان ناشئا عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأ، فإن من المسلّم به عند الجميع فى باب الاجتهاد أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران، وقد صحح علماء أهل السُنّة الحروب التى وقعت بين الصحابة فى الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا، وإن أخطئوا فى اجتهادهم فإن ذلك

لاينال من مكانتهم، فإذا كان الاجتهاد لايبرر قتل المخالفين . فالأولى أن يبرر تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة.

وهكذا مهما تعمقنا فى البحث واعتمدنا على الأدلة العقلية والشرعية وتجردنا من الهوس والعصبيات فلن نجد أى سبب يبرر العداء بين طوائف المسلمين مهما اتسعت الخلافات بينهم فى كثير من المسائل مادامت هذه المسائل الخلافية لا تنكر أصلا من أصول الإسلام أو ركنا من أركانه.

وكيف نقبل استمرار الخلافات بعد كل ما سببته من البلاء، مثل ضياع الأندلس والقوقاز وبخارى ونحوها؟ ولو أن المسلمين كانوا فى تلك الأيام يدا واحدة كما أمرهم الله لما انتزع منهم شبر واحد، ولننظر الآن إلى ما يحدث فى فلسطين وهى الفردوس الثانى المفقود.

وفى هذا السياق كتب الفقيه الأكبر الشيخ حسنين مخلوف وهو مفتى الديار المصرية يقول: إننى من المؤمنين بفكرة التقريب بين المذاهب لأن الإسلام دين الوحدة كما هو دين التوحيد، يشرّع أسباب التجمع، وينهى عن أسباب التفرق، وينهى عن الجدال فيما لا يجدى. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران آية - ١٠٥) و ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام آية١٥٩)، و ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ (الشورة آيتى ١٤ - ١٥)

ويقول الشيخ مخلوف: إن المسلمين منذ عرفوا الاختلاف والطائفية، وصاروا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون، وهنت قواهم، وتمكن منهم أعداؤهم، وجعلوا ينحدرون من سيء إلى أسوأ.

وكتب الشيخ عبد المتعال الصعيدى وهو من كبار أساتذة الأزهر يقول: إن الخليفة المأمون رأى أن يعقد مجالس مناظرة بين الفرق الدينية، فأمر قاضى القضاة- وكان من أهل السُنّة- أن يجمع الفقهاء وأهل العلم فى بغداد، فاختار أربعين رجلا من الأعلام، ولكنه- مع ذلك لم يستطع أن يجمع المسلمين على مذهب واحد، فلجأ إلى إكراه المخالفين على ترك مذهبهم فلم يحقق ذلك سوى التعصب والعناد. وحتى عندما لجأ المأمون إلى سجن المخالفين لم يحقق ذلك شيئا ولكنه أدى إلى زيادة الخلاف. وقد جعل المأمون أهل السُنّة يقولون بالإكراه: إن القرآن مخلوق، فشغل الدولة بهذه القضية (هل القرآن قديم أو مخلوق؟) وانصرف الناس عن الأمور النافعة وأدى ذلك إلى ضياع سنوات فى الخلافات والصراعات. والدرس المستفاد من ذلك أن يُترك الناس أحرارًا فيما يعتقدون، حتى الكافر المعاند، فلا يصح أن يحمل بالإكراه على ترك الكفر تحت تهديد بالعقاب، لأن الله تعالى قال فى الآية (٢٩) من سورة الكهف: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

فلم يذكر عقابا للكافر فى الدنيا، ولكن ذكر عقابه فى الآخرة، لأن عقاب الدنيا لا يؤدى إلى الإيمان، ولكن يؤدى إلى النفاق والتظاهر بالإيمان.. وهذا ما تؤيده الآية الكريمة فى سورة البقرة (٢٥٦): ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾

وكان من نتيجة تفهم علماء أهل السُنّة لمذاهب الشيعة أن خرجوا عن دائرة مذاهب أهل السُنّة الأربعة إلى مذهب من مذاهب الشيعة، وذلك فى قانونى الطلاق

والوصية وغيرهما وكما أخذوا برأى ابن تيمية، وابن القيم، أخذوا من الشيعة الإمامية، وتم ذلك بهدوء ورضا، وفى الأخذ بمذاهب السُنّة والشيعة المعتدلة توسعة للمسلمين.

□□□

هل يمكن أن يتنازل أصحاب مذهب معين عن مذهبهم؟ وبمعنى آخر، هل ترضى الشيعة أن تتنازل للسُنّة عن أفكارها، أو.. يرضى أهل السُنّة باعتناق أفكار الشيعة بالكامل؟.

كانت هذه هى نقطة الهجوم الرئيسية على فكرة التقريب بين المذاهب، بالرغم من أنها دعوة إلى التقريب وليس التوحيد، دعوة إلى التفاهم والتعايش وليست دعوة إلى الإلغاء أو التنازل، وكان الإمام محمد تقى القمى يجيب كلما واجهته هذه الاعتراضات بالقول بأن الفكرة أن يتحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التى لا يكون المسلم مسلما إلا بها، أما نقط الخلاف فى الفروع فعليهم أن ينظروا فيها بالتسامح، ويعذر بعضهم بعضا فيها، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالحجة والدليل إلى اتفاق فى شىء منها فهذا خير، وإذا بقى كل طرف على موقفه فليحتفظ بما يراه، على أساس أن الخلاف فى أمر لا يدخل ضمن أصول الدين لا ينقص الإيمان، ولايُخرج المختلفين عن دائرة الإسلام. وليس فى نقاط الخلاف بين أهل السُنّة والشيعة مايستحق الخصام، ولم يحدث أن قال أحد من علماء أهل السُنّة بمذاهبها، والشيعة الإمامية والزيدية، بكفر طائفة منها، أو الخروج عن الإسلام، لأن العلماء فى مذاهب أهل السُنّة والشيعة أجمعوا على أنه لا خلاف فى المسائل الجوهرية، ومن يعرف أصلا من أصول الإسلام أنكرته إحدى هذه الطوائف أو أنها زادت من أصول الإسلام ماليس منها على سبيل اليقين، فليدلنا عليه ويقدم برهانه على ذلك.

وكان أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب متفقين على أن المسلمين كلهم شيعة لأنهم جميعا يحبون أهل بيت الرسول ﷺ، وكلهم أهل سُنّة لأنهم جميعا ملتزمون

بالأخذ بسُنّة الرسول المؤكدة، فنحن جميعا سُنّيون، شيعيون، قرآنيون، محمديون.

وكانوا يرون أن الخلافات بين أهل السُنّة موجودة بين مذهب الشافعية ومذهب الحنفية فى بعض المسائل، مثل نواقض الوضوء مثلا، فهل نعتبر ذلك خلافا يوجب ابتعاد أحدهما عن الآخر؟. لأن الخلاف أمر طبيعى، وما دام محدودا فى الدائرة التى أباح الله الاجتهاد فيها، فلا ضرر منه، بل فيه خيروتيسير للمسلمين.. ومع ذلك فإن أصحاب المذاهب الفقهية أنفسهم أباحوا الخروج على مذاهبهم، وأباحوا الأخذ ببعض ما فيها والأخذ ببعض ما فى غيرها فى نفس الوقت، وكان الإمام الشافعى يقول: هذا هو الرأى الذى رأيته، فإذا صح الحديث بما يخالف رأيى، فأضربوا بقولى عرض الحائط، فالمرجع هو قول الله والحديث المؤكد عن الرسول ﷺ ، والقاعدة التى أوجبها الله علينا فى كتابه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ (النساء آية ٥٩)

هكذا فإن كل مجتهد لابد أن يرى أن مذهبه الفقهى صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب.

ولماذا لا يدرس أهل السُنّة مذهبى الشيعة الإمامية والزيدية، ويدرس الشيعة مذاهب أهل السُنّة الأربعة..؟ لماذا لا يعرف المسلمون بعضهم بعضا؟. ولقد كان الأزهر الشريف قلعة التسامح الفكرى فقرر دراسة مقارنة للمذاهب منذ عهد الإمام الأكبر الشيخ المراغى، وتبعه الإمام محمود شلتوت، كما أن الأزهر حريص على دراسة مذاهب الفلاسفة أيضا، والمعتزلة، والجبرية وغيرهم، ليكون رجل الدين المسلم على علم بكل المذاهب والنظريات الإسلامية القديمة والحديثة..

ولا شك أن الخطوة الكبرى كانت عندما أخذ قانون الأحوال الشخصية فى مصر فى السبعينات بأحكام من فقه الشيعة وكان الذين أعدوا هذا القانون من صفوة رجال الأزهر وكبار علماء أهل السنة.

□□□

ونعود إلى قصة الخليفة المنصور عندما ذهب إلى الحج التقى بالإمام مالك ودرس مذهبه، فقال له: قد عزمت أن آمر بكتبك هذه فتنسخ، ثم أبعث بها فى كل الأمصار، وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره، فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا.. فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما وصل إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم. هذا ما رواه التاريخ فى ذلك الشأن الإسلامى الخطير كما ورد فى كتاب (حجة الله البالغة للدهلوى- ص ٤٥- الجزء الأول).

فالخليفة شهد اختلاف العلماء فى عصره، وأراد أن يوحد المسلمين على مذهب واحد لينتهى الجدل والخلاف بين العلماء، وأراد أن يكون مذهب الإمام مالك هو المذهب الأوحد، لكن الإمام مالك نفسه هو الذى رفض فكرة إلغاء المذاهب أوتوحيدها، لأنه يرى أن الخلاف بين المذاهب ليس صادرا عن الهوى أو التعصب، ولكنه صادر عن اختلاف فى الفهم والتفسير وهذا طبيعى بالنسبة للعقل البشرى، وإن كان الجميع متفقين على الأصول إلا أن اعتماد الناس على روايات مختلفة عن أقوال وأفعال الرسول ﷺ باختلاف الرواة جعلهم يؤسسون مذاهبهم عليها، وربما تكون الرواية قد بلغت أهل بلد ولم تبلغ غيرهم، خصوصا أن الأحاديث النبوية لم تكن قد تم تدوينها وتمحيصها وكان الاعتماد على الذاكرة والحفظ.

وفى هذا الاختلاف بين المذاهب حكمة، لأن المسلم حر فى أن يأخذ من كل مذهب ما يرتاح إليه قلبه ويقتنع به عقله، وكلها معبّرة عن جوهر الإسلام.. ومن مزايا الفقه الإسلامى أنه ترك باب الاجتهاد مفتوحا، لأن القضايا الجديدة التى تطرح للبحث فى كل وقت لن تنتهى، ولن تتوقف عند حد، وكلما جاء جيل جاءت معه تصرفات وموضوعات وقضايا ومشكلات تحتاج إلى الاجتهاد فى الوصول إلى الرأى الذى يتفق مع أصول الدين.

وليـس الإمام مالك وحده هو الذى رفض توحيد أو إدماج المذاهب، ولكن الإمام أبا حنيفة أيضا رفض التعصب لمذهبه وكان يقول: لا ينبغى لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى، وكان يقول بعد كل فتوى: هذا رأيى، فمن جاء بأحسـن منه فهو أولى بالصواب.

كذلك كان الإمام الشـافعى يتحفظ فى التمسك بمذهبه، ويقول: إذا صح الحديث (الـذى يسـتند إليه هو أو غيره فـى فتواه)، فهو مذهبى، ويقصـد أنه إذا كان هناك حديـث صحيح عن الرسـولﷺ يخالف فتواه. فإن هـذا الحديث هو الذى يجب الأخـذ به، وقال الشـافعى لتلميذه إبراهيم المزنى: يا إبراهيـم لا تقلدنى فى كل ما أقول، وانظر فى ذلك لنفسك.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ليس لأحد مع الله ورسـوله كلام. وكان يقول لـكل تلميذ مـن تلاميذه: لا تقلدنى ولا تقلد الإمام مالـكا ولا الأوزاعى ولا النخعى، ولاغيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا.. من الكتاب والسُنّة.

وكان الإمـام أبو حنيفة وأصحابه، والإمام الشـافعى وأصحابه، يصلُّون خلف من يختلفـون معهم فـى المذهب، ويصلون خلـف أئمة المدينـة وكان مذهبهم ألاّ يقرأ الفاتحة إلا الإمام ولا يقرأها الآخرون، على أساس أن قراءة الإمام هى الواجبة وليس على الآخرين قراءة..

ولم يقل أحد إن باب الاجتهاد قد أغلق إلا فى عصر انحطاط المسلمين.

أما الشيعة الإمامية والزيدية فقد رأوا باب الاجتهاد مفتوحا منذ البداية وإلى يوم الدين. والعقلاء من أهل السُنّة يرون ذلك أيضا..